أفريقية: الأرض والإنسان

في الدراما الإذاعية عند عبده بدوي

بقلم: علي محمد الغريب *
مصر

تنوعت عطاءات الشاعر الكبير عبده بدوي . رحمه الله . بين مجالات الأدب وفنونه، وكان من أهم ما قدمه للمكتبة العربية المقروءة والمسموعة حكاياته الدرامية التي كتبها عن أفريقية من واقع الفلكلور الشعبي لهذه البلاد.. وتعد أفريقيا من الصفحات الناصعة في مسيرة عبده بدوي الأدبية، ففيها جانب كبير من إبداعاته،.

يا إفريقية
ما أروع أن أتهادى
بين حروف عذرية
أن أسطع مثل
البرق على أغنية
أن أمشي مختالا في
نحت أو بردية
أن أقرأ ديوان
شعري المنقوش على
جدرانك في عفوية
أو فيما غنى
«سنغور» في ديوان
الليلات الأسطورية
يا إفريقية

عبده بدوي

والجهد الذي بذله عبده بدوي ليس بالهين في استيعاب عادات وتقاليد الشعوب الأفريقية ونقلها إلينا فيما يشبه الحكايات فقد توافرت له خاصية من أهم خصائص ناقلي الآداب أو من يسمون «بالصورلوجي» الذي يقول عنهم الدكتور عبدالإله الصائغ إنهم يدرسون طبائع شعب ما ويقدمونها لشعب آخر ليستفيد من أجل التواصل والتقارب ومعرفة الحقيقة(1).

لقد نقل إلينا عبده بدوي الكثير من عادات وتقاليد الشعوب الأفريقية في صور درامية بديعة، وهي إلى كونها تكشف جانباً مهماً وصفحة تكاد تكون مجهولة من حياة هذا العالم الفذ، فإنها تأخذ القارئ إلى مجاهيل الحياة الأفريقية وتحلق بنا في آفاق جديدة وغريبة علينا.. فتاريخ أفريقية خلال الفترة التي خرجت فيها أعمال عبده بدوي الدرامية لم يكن معروفا للعرب بشكل كاف ويكاد ماضيها يكون مجهولا، وأكثر ما كتب عنها كان متأثرا بوجهة نظر المستعمرين الذين وفدوا إليها، والذين اغتصبوا حرية الإنسان فيها وهددوا أمنه وحياته.

وكانت أفريقية في ذلك الوقت تكاد تكون جديدة علينا، بعد أن أزيح عنها الستار فجأة أمام العالم في الفترة المعاصرة، لتتدفق بالحرية التي كانت من الغزارة بحيث دعا بعض المؤرخين أن يطلقوا على هذا العصر أنه «عصر أفريقية». إذا أضفنا إلى ذلك أنه كان

* كاتب مسرحي

في مخطط الاستعمار وضع سدٍّ عازل بين بلادنا وبين أفريقية، أدركنا أن أفريقية كانت تشبه «الماسة» التي بهر ضوؤها العالم أجمع، ذلك لأنه قد أحكم «عزلها» عن العالم، ثم عمل الاستعمار على تجفيف الحياة فيها.

ولقد كان في مخططه أنها أصبحت جافة القلب، وأنها لن تستطيع الحياة إلا من خلال البستاني الأبيض الذي يعطيها الحياة قطرة قطرة.. وخفقة خفقة.. وفي وجهه الغضب، وفي قلبه الحقد[٢].

لقد صادف توجه الشارع الثقافي العربي إلى أفريقيا بعد أحداث الحرب العالمية الثانية شيئاً في نفس عبده بدوي الذي تعامل مع أفريقية ومع حركة الإسلام فيها تعاملاً مختلفاً أقل ما يوصف به أنه الشغف وحب البحث والكشف عن وجه الإسلام وحضارته في هذه الأرض؛ فألف كتابه «مع حركة الإسلام في أفريقية» والذي نشرته الهيئة العامة المصرية للتأليف والنشر عام ١٩٧٠م، والكتاب في مجمله جولة في الإرث الحضاري الذي تركه الإسلام والمسلمون في هذه البلاد، وأن هذه البلاد كانت أوراقاً في الشجرة الكبيرة التي تمثل حضارة الإسلام، وأنها جميعاً - باسمه - قد نبتت واخضرت، وأنها كذلك - بالبعد عنه - قد تساقطت ورقة بعد ورقة، ودولة إثر أخرى!

الإسلام حضارة إنسانية حققت للأفريقي السعادة وتحقيق الذات

«من هنا نرى أن الإسلام كان حضارة إنسانية حققت للأفريقي السعادة وتحقيق الذات، ونرى أن الإسلام - في حركته وبحثه عن الإنسان - لم يقف عند الصحراء، وذلك لأنه تعداها إلى أقاليم الأشجار القصيرة، وفي الوقت نفسه طرق الغابة وجعل له من المناطق الساحلية عدة مرتكزات، فهو لم يقف عند كسر (الصحراء الكبرى) وإنما تعداها إلى إقامة عشر دول إسلامية خلف هذه الصحراء في وقت مبكر»[٣].

وبعد أن تحررت أفريقية من كابوس الاستعمار كان لابد من عرضها على أمة العرب تاريخاً وإنساناً وحضارة بالوسائط المتاحة كافة، وكان من بين من نهضوا بهذه المهمة الدكتور عبده بدوي، فقد تولى - رحمه الله - تحرير مجلة «نهضة أفريقية» التي كان يعد الرجل الثاني فيها بعد الدكتور «عبد العزيز إسحاق» وهو أحد المثقفين الذين كانوا ضمن وزارة الخارجية المصرية، وكان له ارتباط بالمجال الأفريقي.

إلى جانب نشاط عبده بدوي في المجلة انطلق في عرض فلكلور هذه البلاد في مقطوعات درامية إذاعية خلابة، تأسر المستمع والقارئ بما فيها من عوالم مختلفة وبيئات غريبة، وأساطير تزخر بألوان التحدي مع البيئة والغابة، إضافة إلى الحكمة وبعد النظر، وقد كان هدف عبده بدوي هو تعريف أفريقية أرضاً وإنساناً للأمي قبل المثقف، بل لجميع فئات الشعب العربي التي تتابع الإذاعة وتجتمع عليها، فهو لم يقتصر على الفلكلور الأفريقي وحده بل عرض سير القادة الأفارقة في حلقات درامية أيضاً، فقد وضع عام ١٩٦٥م كتاب «رجال من أفريقية» ضمن سلسلة «مذاهب وشخصيات وقدمت فيها الإذاعة المصرية عددا من المفكرين والسياسيين الأفريقيين منهم، مثل «ليوبولد سيد ارسنغور» رئيس جمهورية السنغال، و «وليم تبمان» رئيس جمهورية ليبيريا كواحد من الذين ذوبوا المتناقضات في بلده، كذلك قدم نيلسون مانديلا من خلال عذابات المواطنين في جنوب أفريقية، وكيف أنه لم ينهر في السجن أو يضعف إيمانه بقضية بلاده.

وقدم عددا من الأدباء والفنانين والمفكرين، كالقصاص «عثمان سمبين» من السنغال، والمثال ساد من ساحل العاج، والدكتور وليم دوبوا والدكتور جيمس أجراي كمثالين من المثقفين الذين استوعبوا ما قالته الحضارة الحديثة، ثم جعلوا هذه الحضارة في خدمة أفريقية، وكمثالين في الوقت نفسه لاستعصاء بعض المفكرين على الذوبان في العالم الجديد بحيث يصبحون نسخاً مكررة يمتلئ به هذا العالم[٤].

كما أصدر ضمن سلسلة «الكتاب الماسي» العديد من القصص الدرامية خرجت كلها في فترة الستينيات، وهي فترة من أخصب فترات النشر وحركة الثقافة في مصر، وكتب عبده بدوي هذه الحلقات للإذاعة المصرية، فكتب «مع شعوب أفريقية» عام ١٩٦٤، وكما قدم في الكتاب السابق سياسيين ومفكرين وأدباء أفارقة، فإن هذا الكتاب يقدم حلقة مستقلة عن كل شعب بهدف تعريف المستمع العربي بهذا الشعب واستبطان حضارته التي هي في كثير من الأحيان تمت إلى الحضارة الإسلامية بصلة. وقدم في هذا الكتاب شعوب إثيوبيا، والصومال، والسودان، ونيجيريا، وزنجبار،

وغانا، وتنجانيقا، ومالي، وكينا، وسيراليون، وأوغندا، وجنوب أفريقية، وهي كلها قصص تحكي صفحات من تاريخ هذه الشعوب وكفاحها من أجل الحرية. أما كتاب «سهرة مع مصر» فقد صدر في العام ١٩٦٧م، وقدمت الإذاعة المصرية مادته في ذكرى ثورة يوليو مساء ٢٣ يوليو ١٩٦٦م.

وفي كتاب «حكايات من أفريقية» يأخذنا عبده بدوي في رحلة ساحرة مع الفلكلور الأفريقي، وإذا كان هناك من يرى أن الفلكلور لا يخرج عن كونه البقايا المتخلفة التي سقطت من الحياة وهي تجري، وأن هذا الفلكلور لا يستطيع أن يقدم جديداً للعصر، إذا كان هذا رأي بعض الدارسين فإن الأفريقيين يعتقدون أن الفلكلور شيء لا تستغني حياتهم عنه.

ذلك أنهم يعتبرونه نبضاً حياً تُطعم به حياتهم المعاصرة، وأرضية لا يمكن للإبداع الفني أن يبتعد عنها. وفي ضوء هذا يعتبره «نيكيا» أحد أبناء غانا «خامة» ويدعو إلى «جس» هذه الخامة والانتفاع بها، لا باعتبارها «مخلفاً فكرياً» له دلالة على الماضي فقط، وإنما باعتباره ذلك الشيء الذي يمكن منه النظر إلى الماضي والحاضر معاً.

ومن هنا فالفلكلور جزء لا يتجزأ من ثقافة الأفريقي فهو في الأمثال التي تجري على لسانه، وفي الحكم التي لا تفارق أفواه الشيوخ، وفي الأغنية التي تهز النفس، ثم في أشياء كثيرة لعل أهمها الحكاية التي تمثل قمة هذا الفن الشعبي والتي لأهميتها تعطى له عناية خاصة [٥].

ففي حكاية «الوصول إلى الشمس» نرى «جنحو» ذلك الحكيم الثائر على الظلام، حين يستبطئ الشروق لغياب الشمس فترة أطول، الأمر الذي يهيئ الظروف للوحوش التي تخرج من الغابة فتهدد أمن القرية، تروع النساء والأطفال وتلتهم الماشية.

يذهب «جنحو» عارضاً على كاهن القرية فكرة مفادها الذهاب إلى الشمس والتفاوض معها لتظل مشرقة على قريتهم أطول وقت ممكن، حتى لا تتمكن وحوش الغابة من القرية وأهلها ومواشيها.

وحين تروق الفكرة للكاهن يوافقه شريطة أن يستشيروا أهل القرية، فيدقوا الطبول، ويُقدم أهل القرية جميعاً في ساحتها، ويعرض «جنحو» فكرته، فيتحمس الجميع للفكرة، ويتقدم أكثر من شخص مستعداً للذهاب إلى الشمس والتفاوض معها.

أصدر د. عبده بدوي العديد من القصص الدرامية في فترة الستينيات ضمن سلسلة الكتاب الماسي

جنحو: من الذي يتقدم؟

العجوز: أنا «جوشيا» هل تقبلني يا سيدي الكاهن؟ هل تقبلني يا جنحو؟

جنحو: ولكنك رجل عظيم.

الكاهن: بل أنت أكبر رجل في القبيلة.

العجوز: ولكني مازلت قادراً على السير، ثم إني لا أعمل الآن في الحقل ولما كان على كل إنسان أن يؤدي عملاً فإني أرى نفسي جديراً بهذه المقابلة.

ويشفق الكاهن على «جوشيا» كبير القبيلة العجوز فيعفيه من هذه المهمة. فتتوالى عروض أفراد القبيلة في حماسة للقاء الشمس، فيعرض الشاب «مندو» نفسه، ويعرض أحد الصبيان نفسه، لكن الكاهن وجنحو لا يوافقان، فالمدة التي يستغرقها الطريق إلى الشمس ستلتهم عمر الشاب وعمر الصبي قبل لقاء الشمس والتحدث معها، فيقع الجميع في حيرة لحل هذه المشكلة، وفي غمرة حيرتهم تتقدم منهم امرأة اسمها «ناندي» مجيبة على تساؤل الكاهن ماذا نفعل:

ناندي: ترسلني أنا إلى الشمس.

جنحو: أنت يا ناندي بجسمك الرقيق؟

الكاهن: هل نرسل امرأة؟

جنحو: ثم إنك حامل وهذا ما يزيد الأمر تعقيدا.

ناندي: بل إنه يزيد الأمر وضوحاً.

الكاهن: كيف ذلك؟

ناندي: ماذا تقدر من الزمن للوصول إلى الشمس؟

جنحو: ثمانين عاما لا تزيد ولا تنقص.

ناندي: إذن فلن يقوم بهذا العمل إلا طفلي الذي سأحمله رسالتكم وهو بلا شك سيقوم بها بعد موتي.

يبدو الأمر معقولاً لـ«جنحو» والكاهن. فيوافقان على صعود ناندي إلى الشمس، ويوصيها الكاهن بأن توصي ابنها الذي ستضعه في الطريق أن يجعل علامة عودته إلى القرية ظافراً بوعد الشمس بشروق أطول أن يجعل علامة وصوله صبغ السماء بعدة ألوان زاهية.

ويظل ذهاب ناندي خبرا يتناقله الناس ويتغنون به، وبالألوان التي سيرونها عند عودة البشير.. وتمضي الأيام والليالي.. وفي يوم من الأيام يرون موكب الشروق الزاهي بالألوان السخية، وإذا بهم يعدون الأيام التي فارقتهم فيها ناندي فيجدونها ثمانين عاما بالتمام والكمال.. وها هو اليوم الموعود قد جاء لتنتهي معاناتهم مع الوحوش التي تهددهم فقد باتوا ينعمون بالأمن والسكينة.

تترجم هذه الحكاية ما يحلم به الأفريقي من انمحاء الظلم والظلام وإطلال الشروق سخيا بالألوان مفعما بالسحر والجمال، كما تبين مدى تعاضد أفراد القبيلة الذين يمثلون الشعب بكافة أطيافه وأعماره، وحرص الكل على الخير للكل، بدءاً من الحكيم «جنحو» الذي يمثل صوت الضمير، مروراً بالكاهن الذي يمثل السلطتين الدينية والسياسية، فهو لا يستغني عن آراء شعبه، ولا يقطع أمراً دونهم، وحينما يعرض على جنحو الأمر يقول:

الكاهن: ولكن.. ألا نشرك معنا أفراد القبيلة؟

جنحو: لا أمانع في هذا.

كما تبين الحكاية عناد الإنسان الأفريقي أمام الظلم والقهر وصبره الطويل الجميل، وأنه يتوسل بكل السبل للتخلص مما يضره وإن طال الزمن، فالثمانون عاما التي غابتها «ناندي» وهلكت دونها لم تنسهم حلمهم الذي ظل شاخصاً أمامهم ينتظرونه مع كل شروق شحيح، إلى أن جاء اليوم الموعود وانفجر بركان النور بوصول ابن «ناندي» تلك المرأة التي ضحت بنفسها من أجل قبيلتها.

ويزخر كتاب «حكايات من أفريقية» بالعديد من الصور المشابهة التي تؤكد أن الفلكلور الأفريقي مليء بالقيم والمعاني الإنسانية والعطاء بلا حدود؛ ففي حكاية «سبب الغيرة» التي تروي مثول «أوهيا» أمام كاهن القبيلة لمحاكمته بسبب سخريته من زوجته العرجاء.. يحاول «أوهيا» أن يوضح للكاهن أنه لم يسخر منها وإنما هي من ظنت به هذا لفرط غيرتها من زوجته الثانية.. يصر عليه الحاكم في قص السبب أمام الملأ حتى تبرأ ساحته أمام أفراد القبيلة.. فيحكي له «أوهيا» أنه كان يخرج وصديقه لجمع عصير النخل في أوانٍ يتركونها تحت النخيل فكانت تتكسر، وذات مرة اكتشف أوهيا أن أحد التيوس البرية هو من يفعل هذا فتتبعه حتى وجد نفسه يدخل على النمر الذي غضب لاقتحامه المكان، فحكى له حكايته، فعطف عليه النمر وعلمه منطق الحيوان، على أن لا يبوح بهذا السر لأحد وإن فعل فستكون نهايته.. وأثناء عودته إلى داره وعندما كانت تطل زوجته العرجاء من الباب سمع فأرين يتناجيان، فقال أحدهما للآخر: مادام قد نام صاحب الدار فلنذهب لنستولي على الطعام.

> يؤكد عبده بدوي من خلال حكاياته الدرامية على قيمة الإنسان الإفريقي . وسعيه الدائم من أجل الحرية، واحترام الذات والآخر.

وحينما توقف أوهيا عن الكلام وحاول الكاهن مخاطبته ولم يجب علم أنه قد باح بالسر فمات.. فأجمع أفراد القبيلة على إحراق الزوجة العرجاء وذر رمادها في الجهات الأربع ومن يومها رتعت الغيرة في القلوب لتعكر النفوس وتصدها عن الصفاء.

وهذه الحكاية على طرافتها تحمل من المضامين الشيء الكثير، منها احترام الأفريقي لمن ارتضاه حاكماً أو كاهنا أو مرجعاً يرجع إليه، فحينما يحضر يناديه الكاهن والحاكم في نفس الوقت:

الحاكم: أوهيا.. أخيراً حضرت؟

أوهيا: وهل أستطيع عدم الحضور يا سيدي الحاكم؟

الحاكم: أنت تعرف أنك صديقي.

أوهيا: وأنا أحبك كأعمق ما يكون الحب.

وحين يبدأ الحاكم في استجوابه عن سبب ضحكه وسخريته من المرأة لا يتردد في إبداء السبب الحقيقي الذي سيؤدي إلى

هلاكه امتثالاً لأمر الحاكم أولاً، واحتراماً لأفراد قبيلته الذين ينتظرون موقفه من التهمة ثانياً.

والحاكم نفسه يجد نفسه مضطراً لاستجوابه نزولاً على رغبة زوجته احتراماً لها كواحدة من أفراد قبيلته:

الحاكم: إننا لا نطالبك بالكلام إلا أنها أقامت دعوى تقول فيها إنك سخرت منها.

أوهيا: أنا لا أسخر من أحد.

الحاكم: وأنت تعرف أنها عرجاء.

أوهيا: أعرف هذا تماماً.

الحاكم: وتعرف أن القبيلة تحترم الإنسانية.

أوهيا: بلا شك.

الحاكم: والآن بقي عليك أن تتكلم.

أوهيا: ولكني إن تكلمت ستندم وتندم القبيلة!

الحاكم: لا تنس أننا نحاكمك باسم احترام الحياة.

أوهيا: هل أنت مصر على أن أتكلم؟

الحاكم: نعم.

وهكذا يؤكد عبده بدوي -رحمه الله- من خلال حكاياته الدرامية على قيمة الإنسان الأفريقي، وسعيه الدائم من أجل الحرية، واحترام الذات واحترام الآخر حتى وإن كان الثمن حياته. كما تؤكد هذه الحكاية على سوء الغيرة وقبحها إذا وقعت بدون سبب، فهو يجسمها في امرأة عرجاء مشوهة تأكل نفسها. وإذا رأت أحدا يضحك أو يعلو محياه السرور فإن هذا يسوؤها ويؤذيها، وما الغيرة العمياء التي تدمر حياة البشر إلا صورة لهذه المرأة الدميمة العرجاء!!

ويسوق عبده بدوي العديد من الحكايات المليئة بالأساطير والخرافات التي لا تخلو من مغزى أو عبرة أو طرفة، وهو ما يكشف عن روح ساخرة لديه وقدرة على إدارة الحوار والصراع الذي يتطلبه العمل الدرامي الذي يعتمد على الحوار، إذ يكون الحوار فيه هو البطل في دفع الحدث وتنميته وصولاً به إلى الذروة، وهذا ما نلمسه جلياً فيما بين أيدينا من أعمال عبده بدوي الدرامية.

إن هذه الأعمال الدرامية الرائعة للراحل عبده بدوي تحتاج إلى بعث من جديد لتطلع عليها الأجيال الجديدة، فهي فضلاً عن أنها تحمل كماً هائلاً من الحكايات الغريبة التي تعتمد على الأسطورة، والحكاية على لسان الطير والحيوان، فهي تكشف تراثاً مجهولاً لهذه الأرض الأفريقية العزيزة، ولعل أسرة الراحل الكريم تقوم مشكورة بدفع هذا التراث الضخم لهذا الشاعر الكبير إلى إحدى دور النشر لإعادة نشره وإشعاعه على الدنيا من جديد. ■

الهوامش :

(١) د. عبدالإله الصائغ، النقد الأدبي الحديث وخطاب التنظير.. النظرية والتحليل، مركز عبادي، صنعاء.

(٢) د. محمد المعتصم سيد، من مقدمة مع شعوب أفريقية، الكتاب الماسي، الدار القومية للطباعة والنشر، العدد رقم ٩٩.

(٣) د. عبده بدوي، من مقدمة كتاب «مع حركة الإسلام في أفريقية»، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م.

(٤) د. عبده بدوي، رجال من أفريقية، سلسلة مذاهب وشخصيات، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥م.

(٥) د. عبده بدوي، حكايات من أفريقية، الكتاب الماسي، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦م.